تفسير سورة غافر كاملة

سورة غافر

رامي حنفي محمود

تفسير سورة غافر كاملة

شبكة الألوكة
www.alukah.net

هذا الكتاب منشور في

سلسلة كيف نفهم القرآن؟ ١

١. الربع الأول من سورة غافر

– الآية ١: ﴿ حم ﴾: سَبَقَ الكلام على الحروف المُقطَّعة في أول سورة البقرة، واعلم أنّ هذه الحروف تُقرأ هكذا: (حا ميم).

– الآية ٢، والآية ٣: ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ ﴾ على النبي محمد صلى الله عليه وسلم، إنما هو ﴿ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ ﴾ أي الغالب الذي لا يَمنعه شيءٌ مِن فِعل ما يريد، ﴿ الْعَلِيمِ ﴾ بما يحتاجه خلقه، فلذلك أنزل لهم هذا الكتاب لهدايتهم وإصلاحهم، وهو سبحانه ﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ ﴾ للمستغفرينَ النادمين ﴿ وَقَابِلِ التَّوْبِ ﴾ من التائبين، ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ ﴾ على مَن تجرَّأَ على الذنوب ولم يتب منها، ﴿ ذِي الطَّوْلِ ﴾: أي صاحب الإنعام الواسع – يعني صاحب النعم الكثيرة – على عباده الطائعينَ المخلصين، ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾: أي لا يَستحق العبادة إلا هو، ﴿ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾: يعني إليه مصير الخلائق يوم القيامة، فيجازي كُلاًّ بما يَستحق.

– الآية ٤: ﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ ﴾ الواضحة – التي تدل على التوحيد والبعث – ﴿ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يعني: إلا الجاحدون الذين جحدوا أنه الإله الحق المُستَحِقّ وحده للعبادة، ﴿ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ﴾: أي لا يَخدعك – أيها الرسول – ما عليه أهل الكفر مِن سعةٍ في الرزق والعَيش، ومِن انتقالهم من مكان إلى آخر للتجارة وطلب الأموال، فإنّ هذا كله متاعٌ قليل، وسوف يزول عنهم عن قريب، ثم مأواهم جهنم وبئس المصير.

– الآية ٥: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ ﴾ أي قبل مُشركي مكة ﴿ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ (والأحزاب هي الأمم التي تَحزَّبتْ – أي اجتمعت – على تكذيب رُسُلهم كعادٍ وثمود)، ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ﴾: أي هَمَّت كل أمة من هذه الأمم المكذبة أن تأخذ رسولها لتقتله، ﴿ وَجَادَلُوا ﴾ رُسُلهم ﴿ بِالْبَاطِلِ ﴾ أي مِن غير علمٍ أو دليل ﴿ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾ أي ليُحاولوا إزالة الحق بجدالهم، ﴿ فَأَخَذْتُهُمْ ﴾ أي عاقَبْتُهم بأنواع العذاب والهلاك ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ يعني: فكيف كان عقابي لهم على كُفرهم وتكذيبهم؟ (والاستفهام للتقرير)، أي لقد كان عقابي بهم شديداً مُهلِكاً، ليكونوا عِبرةً لمن يأتي بعدهم، (وفي هذا تصبير للرسول صلى الله عليه وسلم على ما يَلقاهُ من تكذيب قومه، وفيه أيضاً تهديدٌ لمُشركي مكة أن يصيبهم ما أصاب المُكَذِّبين قبلهم).

– الآية ٦: ﴿ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ يعني: وكما وَجَبَ العقاب على الأمم السابقة التي كَذَّبت رُسُلها، فكذلك وَجَبَ حُكم ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار.

---

١ وهي سلسلة تفسير لآيات القرآن الكريم، وذلك بأسلوب بسيط جدًّا، وهي مُختصَرة من (كتاب: "التفسير المُيَسَّر" (بإشراف التركي)، وأيضًا من "تفسير السّعدي "، وكذلك من كتاب: " أيسر التفاسير" لأبي بكر الجزائري) (بتصرف)، عِلمًا بأنّ ما تحته خط هو نص الآية الكريمة، وأما الكلام الذي ليس تحته خط فهو التفسير. واعلم أن القرآن قد نزلَ مُتحدياً لقومٍ يَعشقون الحَذفَ في كلامهم، ولا يُحبون كثرة الكلام، فجاءهم القرآن بهذا الأسلوب، فكانت الجُملة الواحدة في القرآن تتضمن أكثر مِن مَعنى: (مَعنى واضح، ومعنى يُفهَم من سِيَاق الآية)، وإننا أحياناً نوضح بعض الكلمات التي لم يذكرها الله في كتابه (بَلاغةً)، حتى نفهم لغة القرآن.

- الآية ٧، والآية ٨، والآية ٩: ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ ﴾ من الملائكة ﴿ وَمَنْ حَوْلَهُ ﴾ يعني: ومَن يقفون حول العرش منهم، كل هؤلاء ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾: أي يُنَزِّهونَ ربهم عن كل ما لا يليق به، مِمّا يقوله المُشرِكونَ المفترون (مِن اتخاذ الشريك والولد)، ويُثنونَ عليه قائلين: (سبحان الله وبحمده)، ﴿ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ أي يؤمنون بوحدانيته وعدم الإشراك به في عبادته، ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾: أي يطلبون من ربهم أن يعفو عن المؤمنينَ، قائلين: ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ ﴿ فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا ﴾ من الشرك والمعاصي ﴿ وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ ﴾: أي سلكوا الطريق الذي أمَرتَهم أن يسلكوه، وهو الإسلام ﴿ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ أي اصرف عنهم عذاب النار وأهوالها، ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ أي جنات الخلود ﴿ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ ﴾ ﴿ وَمَنْ صَلَحَ ﴾ أي: ومعهم الصالحونَ ﴿ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ - والذرية هي الأبناء (ذكوراً كانوا أو إناثاً) - ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ ﴾ أي الغالب الذي لا يَمنعه أحد مِن فِعل ما يريد، ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ في تدبيرك وصُنعك، ﴿ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ﴾: أي اصرف عنهم سُوء عاقبة سيئاتهم، فلا تؤاخذهم بها، ﴿ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ ﴾ يعني: مَن تصْرِف عنه عاقبة السيئات يوم القيامة: ﴿ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ﴾ وأنعمتَ عليه بالنجاة من عذابك، ﴿ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ الذي لا فوزَ مثله.

- الآية ١٠: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ - عندما يدخلون النار - يَكرهونَ أنفسهم كُرهاً شديداً، لأنهم أطاعوا ما تدعوهم إليه نفوسهم، فأدَّتْ بهم إلى هذا المصير، وعندئذٍ ﴿ يُنَادَوْنَ ﴾: أي تناديهم ملائكة جهنم: ﴿ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾: يعني إنّ كُره الله لكم في الدنيا أكبر مِن كُرهكم لأنفسكم الآن ﴿ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴾: أي حين طَلَبَ سبحانه منكم الإيمان به واتِّباع رُسُله، فرفضتم واستكبرتم.

- الآية ١١: ﴿ قَالُوا ﴾ أي قال الكافرون وهُم في جهنم: ﴿ رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ ﴾ يعني لقد أمَتَّنا مرتين: (مرة حين كنا في بطون أمهاتنا قبل نفخ الروح، ومرة حين انتهى أجلُنا في الدنيا)، ﴿ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ ﴾ يعني: وأحيَيتَنا مرتين: (مرة في الدنيا يوم وُلِدْنا، ومرة يوم بُعِثنا من قبورنا)، ﴿ فَاعْتَرَفْنَا ﴾ الآن ﴿ بِذُنُوبِنَا ﴾ السابقة، ﴿ فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ يعني: فهل لنا مِن طريق نخرج به من النار، وتُعِيدنا به إلى الدنيا لنَعمل بطاعتك؟ (ولكنْ لن ينفعهم هذا الاعتراف، فقد فات أوان التوبة والندم).

- الآية ١٢: ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ أي ذلك العذاب الذي أصابكم ﴿ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ﴾: أي بسبب أنكم كنتم إذا دُعيتم لتوحيد الله تعالى وإخلاص العمل له: كفرتم، ﴿ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا ﴾ يعني: وإن يُجعل لله شريكٌ تُصَدِّقوا به وتَتَّبعوه، ﴿ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ ﴾ يعني: فاللهُ سبحانه هو الحاكم في خَلقه، العادل الذي لا يَظلم، وقد حَكَمَ بعذابكم بسبب شِركِكم، فلا سبيلَ إلى نجاتكم، وهو سبحانه ﴿ الْعَلِيِّ ﴾ الذي له عُلُوّ الذات والقَدْر والقهر، ﴿ الْكَبِيرِ ﴾ في ذاته وصفاته (فهو أكبر وأعظم من كلِّ شيء).

- الآية ١٣: ﴿ هُوَ ﴾ سبحانه ﴿ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴾ الدالة على توحيده وقدرته على البعث ﴿ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا ﴾ أي مطرًا تُرزَقون به (إذ تشربونه أنتم ومَواشيكم، وتَحيا به مَزارعكم بالنبات، فيتوفر لكم غذاؤكم وتجارتكم)، (ففي إحياء الله للأرض المَيّتة: دليلٌ على قدرته على بعث الموتى، وفي خَلْقِهِ للمطر الذي يَنتفع به الناس: دليلٌ على أنه

الخالق المُنعِم المُستحِقّ وحده للعبادة، ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ ﴾ بهذه الآيات ﴿ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴾ أي يُخلِص عبادته لربه، ويرجع إليه بالتوبة في كل وقت.

♦ وبمناسبة ذِكر التوبة في كل وقت، فإنه يَحضُرني قول ابن القيِّم رحمه الله وهو يتحدث عن الأسباب المُنجية من عذاب القبر: (ومِن أنفعها - أي مِن أنفع هذه الأسباب - أن يَجلس الرجل عندما يريد النوم لله ساعةً، يُحاسب نفسه فيها على ما خَسِرَه ورَبحَه في يومه، ثم يُجَدِّد له توبةً نصوحاً بينه وبين الله، فينام على تلك التوبة، ويَعزم على ألاَّ يُعاود الذنب إذا استيقظ، ويَفعل هذا كل ليلة، فإنْ ماتَ مِن ليلته: ماتَ على توبة، وإن استيقظ: استيقظَ مُستقبلاً للعمل، مسروراً بتأخير أجله، حتى يستقبل ربه ويَستدرك ما فاته، وليس للعبد أنفع من هذه التوبة، ولا سِيَّما إذا عَقَّبَ ذلك بذكر الله واستعمال السُنَن التي وردت عن رسول الله عند النوم، حتى يَغلبه النوم، فمن أراد الله به خيراً وَفَّقَه لذلك، ولا قوة إلا بالله).

- من الآية ١٤ إلى الآية ١٧: ﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ يعني أخلِصوا - أيها المؤمنون - عبادتكم ودعاءكم لله وحده، وخالِفوا المُشرِكين في طريقتهم ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾: يعني ولو أغضبهم ذلك، فلا تهتموا بهم، بل ادعوا الله وحده، فإنه سبحانه ﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ﴾ أي: هو العليُّ الأعلى، صاحب الدرجات العالية الرفيعة، وهو أيضاً رافِعُ درجات أوليائه في الجنة، وهو سبحانه ﴿ ذُو الْعَرْشِ ﴾ أي صاحب العرش العظيم، ومِن رحمته بعباده أنه ﴿ يُلْقِي الرُّوحَ ﴾ أي يُنَزِّل الوحي - الذي به حياة الأرواح والقلوب - ﴿ مِنْ أَمْرِهِ ﴾ أي بأمره سبحانه ﴿ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ المُرسَلين ﴿ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴾ أي ليخوِّف الرسولُ الناسَ من يوم القيامة (الذي يلتقي فيه الأولون والآخرون، ويلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض) ﴿ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ ﴾ أي ظاهرونَ أمام ربهم ﴿ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ﴾ (لا من أجسادهم ولا مِن أعمالهم)، ويقول الله لهم: ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ﴾؟ فيجيب سبحانه نفسه قائلاً: ﴿ لِلَّهِ الْوَاحِدِ ﴾ - أي الواحد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله - ﴿ الْقَهَّارُ ﴾ الذي قهر كل شيء وغلَبَه، ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ مِن خيرٍ وشر ﴿ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ﴾ ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ فلا يَشغله سبحانه شيءٌ عن آخر، ولا يُتعِبُهُ إحصاءٌ ولا عدد.

- الآية ١٨: ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ ﴾ أي: حَذِّر الناسَ - أيها الرسول - من يوم القيامة القريب وإن استبعدوه (فإنّ كل آتٍ قريب)، ﴿ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ ﴾: أي في هذا اليوم تكون قلوب العباد قد ارتفعت مِن صدورهم حتى قاربَت أن تصل إلى حناجرهم، خوفاً من عقاب ربهم، وتراهم حينئذٍ ﴿ كَاظِمِينَ ﴾ أي ممتلئين غمًّا وحزنًا، ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ ﴾: يعني ليس للظالمين قريبٌ ولا صاحب ﴿ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾: يعني وليس لهم شفيعٌ يَشفع لهم عند ربهم، فيُستجاب له.

- الآية ١٩: ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ ﴾: أي يعلم سبحانه ما تختلسه العيون مِن نظراتٍ إلى الحرام، ﴿ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ يعني: ويعلم ما يخفيه الإنسان في نفسه من خير أو شر، (وهذا إخبارٌ من الله تعالى لعباده عن سعة علمه بهم ومراقبته لهم، ليَحذروا مخالفته، فيفوزوا بجنته)، (واعلم أنّ قوله تعالى: (يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ)، هو معطوفٌ على قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)، وعلى هذا يكون إنذارهم بيوم القيامة مُعترَض بين هاتين الجملتين، للَفتْ الانتباه إلى أهميته وخطورة شأنه).

- الآية ٢٠: ﴿ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ﴾: أي يقضي سبحانه بين الناس بالعدل (لكمال علمه وقدرته)، ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ﴾ من الآلهة الباطلة ﴿ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ﴾ لعَجْزهم عن ذلك (لأنها أصنام لا تسمع ولا تبصر)، و﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ ﴾ لِمَا تنطق به ألسنتكم، ﴿ الْبَصِيرُ ﴾ بأفعالكم، وسيجازيكم عليها.

- الآية ٢١: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا ﴾ - أي هؤلاء المكذبون -، ألم يَمشوا ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾ متأملينَ مُعتبرين، ﴿ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أي: كيف كانَ مصير المُكَذِّبين مِن قبلكم (كعادٍ وثمود وقوم لوط)؟ وما نزل بهم من الهلاك، وقد ﴿ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ ﴾ يعني: وقد كان أولئك الكَفَرة السابقين أشد قوة من كفار "مكة" وأبقى في الأرضِ آثارًا (كالأبنية والمصانع وغير ذلك)، فلم تنفعهم شدة قوتهم وعِظَم أجسامهم ﴿ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أي أخذهم بعقوبته؛ بسبب كُفرهم وعِصيانهم، ﴿ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴾: أي لم يكن لهم أحد يَمنعهم من عذاب الله تعالى ويدفعه عنهم.

- الآية ٢٢: ﴿ ذَلِكَ ﴾ أي العذاب الذي نزل بالمُكَذِّبين السابقين ﴿ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا ﴾: أي بسبب أنّ رُسُلهم جاءتهم بالدلائل القاطعة على صِدق دعوتهم، فكفروا بهم وكذَّبوهم، ﴿ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ﴾ بعقابه، ﴿ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ إذ عقابه سبحانه لا يُطاقُ ولا يُحتمَل.

****

سلسلة كيف نفهم القرآن؟ (*)

٢. الربع الثاني من سورة غافر

– الآية ٢٣، والآية ٢٤: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا ﴾ الدالّة على أنه رسولٌ من عند الله تعالى، وهي الآيات التسع التي أعطاها اللهُ له (وهي العصا واليد والطوفان، والجَراد والقُمَّل والضفادع، والدم ونقص من الثمرات والأنفس)، ﴿ وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ أي أرسلناه بحُجَّةٍ قوية واضحة، تُبَيِّن لمن تأمَّلها وجوب توحيد الله تعالى وبُطلان ألوهية مَن سواه.

♦ ويُحتمَل أن يكون المقصود بالسُلطان المُبين هنا: (العَصا)، وإنما أُعادَ سبحانه ذِكرها بعد أن ذَكَرَ الآيات عموماً، لأنّ العصا كانت أشهر الآيات وأقواها، وبها هُزِمَ السَحَرة، فكانت هي الحُجَّة القوية الواضحة التي قهرتْ القلوب، فانقادتْ لها قلوب المؤمنين، وقامت بها الحُجّة على المُعاندين.

♦ فأرسلناه بهذه الآيات ﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ ﴾ مَلِك "مصر"، ﴿ وَهَامَانَ ﴾ وزير فرعون، ﴿ وَقَارُونَ ﴾ صاحب الأموال والكنوز، ﴿ فَقَالُوا ﴾ – مستكبرينَ عن الانقياد للحق –: إنّ موسى ﴿ سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ (واعلم أنّ قَارون مِن بني إسرائيل، وقد جاءه موسى لينهاه عن الظلم والتكبر على الناس، ولكنه كَذَّبَ موسى ووقف في صف فرعون).

– الآية ٢٥: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا ﴾ (وهي المُعجزات المذكورة في الآية السابقة)، لم يكتفوا بمعارضتها وإنكارها، بل ﴿ قَالُوا ﴾: ﴿ اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ﴾ ﴿ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ﴾ أي اتركوا بناتهم أحياءً للخِدمة والإهانة، ﴿ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ أي: ما تدبير أهل الكفر إلا في ضَياعٍ وهَلاك.

– الآية ٢٦: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ لأشراف قومه: ﴿ ذَرُونِي ﴾ أي اتركوني ﴿ أَقْتُلْ مُوسَى ﴾ ﴿ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ الذي يزعم أنه أرسله إلينا، فيمنعه مني، ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ﴾ الذي أنتم عليه، ﴿ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ أي يُظْهِر الفساد في أرض مصر بالقتل والتخريب وغير ذلك، (وقد قال هذا تمويهاً على الناس ليُحَرِّضهم على موسى عليه السلام).

– الآية ٢٧: ﴿ وَقَالَ مُوسَى ﴾ لفرعون ومَلَئه: ﴿ إِنِّي عُذْتُ ﴾ أي اعتصمتُ ﴿ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ ﴾ – عن توحيد الله وطاعته – ﴿ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ الذي يحاسب الله فيه خلقه.

– الآية ٢٨، والآية ٢٩: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ (وقد قيل إنّ هذا الرجل هو ابن عم فرعون)، وكانَ ﴿ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ ﴾ (بعدما رأى آيات موسى الواضحة)، فقال مُنكِرًا على قومه عَزْمهم على قتْل موسى: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ يعني: كيف تستحلون قَتْلَ رجل لم يفعل شيئاً إلا أن قال ربي الله، ﴿ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي بالبراهين القاطعة التي تدل على صِدْق ما جاء به ﴿ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾؟! ﴿ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ﴾ يعني عاقبة كذبه ستعود عليه وحده ولن تضركم، ﴿ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا ﴾ وكَذّبتموه: ﴿ يُصِبْكُمْ بَعْضُ ﴾ العذاب ﴿ الَّذِي يَعِدُكُمْ ﴾ به في الدنيا قبل الآخرة، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ ﴾ أي لا يوفق إلى النصر والفوز في أموره مَن هو متجاوز للحد في الاعتداء والظلم (يقصد بذلك فرعون) ﴿ كَذَّابٌ ﴾ فيما يقوله للناس.

♦ ثم قال لهم هذا الرجل المؤمن: ﴿ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ﴾ أي لكم الحُكم والسُلطة ﴿ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾: أي غالبينَ في أرض "مصر" على رَعِّيتكم من بني إسرائيل وغيرهم، ﴿ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا ﴾: يعني فمَن يدفع عنا عذاب الله إنْ نزل بنا؟، فـ ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ لقومه: ﴿ مَا أُرِيكُمْ ﴾ يعني: ما أُشِير عليكم من الرأي والنصيحة ﴿ إِلَّا مَا أَرَى ﴾ أنّ فيه صلاحًا وصوابًا لي ولكم، ﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾: يعني ما أدعوكم إلا لطريق الحق والصواب.

– من الآية ٣٠ إلى الآية ٣٥: ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ ﴾ (وهو الرجل المؤمن من آل فرعون)، فقال لفرعون ومَلَئه واعظًا ومُحذرًا: ﴿ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ ﴾ – إن قتلتم موسى – يوماً ﴿ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴾ الذين تحَزَّبوا – أي اجتمعوا – على أنبيائهم ﴿ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ أي مِثل عادة قوم نوح في التكذيب ﴿ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ (فقد أهلكهم الله بسبب تكذيبهم لرُسُلهم) ﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴾ (فلا يُعذبهم إلا بعد قيام الحُجَّة عليهم)، ﴿ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴾ (وهو يوم القيامة، الذي ينادي فيه بعضُ الناس بعضًا من هول الموقف وشدة حَرِّه، وما ينتج عن ذلك من كثرة العَرَق وشدة الكرب) ﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ﴾ أي تحاولون الفرار والهرب، ولكنكم لا تستطيعون ذلك، لأنه ﴿ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾: أي ليس لكم مِن مانعٍ يَمنعكم من عذاب الله، ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ يعني: مَن يخذله الله فيُضِلّه عن طريق الحق، فليس له أحدٌ يُوفقه إلى الحق والصواب، ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ يعني: ولقد أرسل الله إليكم النبي يوسف بن يعقوب بالدلائل الواضحة على صِدقه مِن قبل موسى، وأمَرَكم بعبادة الله وحده لا شريك له ﴿ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ ﴾ أثناء حياته ﴿ حَتَّى إِذَا هَلَكَ ﴾: يعني حتى إذا مات يوسف، ازدادَ شَكُّكم وشِرككم، و﴿ قُلْتُمْ ﴾: ﴿ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ﴾ ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴾ يعني: بِمِثل ذلك الضلال الذي أنتم فيه: يُضِلُّ الله كل متجاوز للحق، شاكٍّ في وحدانيته تعالى، فلا يوفقه إلى الهدى والرشاد، وهؤلاء الضالون هم ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ ﴾ وحُجَجه ليَدفعوها بجدالهم ﴿ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ﴾: أي مِن غير أن يكون عندهم حُجَّة من الله تعالى، أو عِلم أتاهم عن طريق الوحي، ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي: تسبَّبَ جدالهم الباطل في كُره الله والمؤمنين لهم كُرهاً كبيراً ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ ﴾ يعني: وكما ختم الله بالضلال على قلوب هؤلاء المجادلين بغير علم، فكذلك يَختم على قلب كل متكبر عن توحيد الله وطاعته، ﴿ جَبَّارٍ ﴾ بكثرة ظُلمه واعتدائه.

– الآية ٣٦، والآية ٣٧: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ مُكذِّبًا لموسى في دَعْوته، مُتكبراً عن الإقرار والتسليم لرب العالمين: ﴿ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا ﴾ أي بنَاءً عظيمًا ﴿ لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴾ يعني: لَعَلّي أصل إلى الأبواب، وهي ﴿ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ ﴾ يعني أبواب السماوات ﴿ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى ﴾: يعني أنظر إلى إله موسى بنفسي، ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ﴾: يعني أظن أنّ موسى كاذبٌ في دَعواه بأنّ لنا ربًا وأنه فوق السماوات، ﴿ وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ يعني: وهكذا حَسَّنَ الشيطانُ لفرعون عمله السيِّئ فرآه حسنًا ﴿ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ﴾: أي مُنِعَ فرعون عن الوصول إلى سبيل الحق (بسبب الباطل الذي زُيِّن له)، ﴿ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ ﴾ أي تدبيره – ليُوهِم الناس أنه على الحق وأنّ موسى على الباطل – ﴿ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾: أي سيكون كيده في خسارةٍ وهلاك، ولن يعود عليه إلا بالشقاء في الدنيا والآخرة.

٣. الربع الثالث من سورة غافر

– من الآية ٣٨ إلى الآية ٤٤: ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ ﴾ (وهو الرجل المؤمن من آل فرعون)، فقال مُعِيدًا نصيحته لقومه: ﴿ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ ﴾ أي أطيعوني في الإيمان بالله تعالى واتِّباع رسوله موسى: ﴿ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ يعني أدُلُّكم على طريق الرُشد والصواب، لتنجوا من عذاب الله تعالى، وتفوزوا بجنَّته، ﴿ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ ﴾ أي يَتنعَّم الناس فيها قليلاً، ثم تزولُ عنهم سريعاً، فينبغي ألا تَرْكَنوا إليها ﴿ وَإِنَّ الْآخِرَةَ ﴾ بما فيها من النعيم المقيم ﴿ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴾ أي هي دار الإقامة التي تستقرون فيها (فينبغي أن تُفَضِّلوها على الدنيا، وأن تعملوا لها العمل الصالح الذي يُسعِدكم فيها)، واعلموا أنّ ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا ﴾: يعني مَن عصى اللهَ في حياته وانحرف عن طريق الهدى، فلا يُجْزى في الآخرة إلا عقابًا يساوي معصيته (إلا لو تابَ وقَبِلَ اللهُ توبته)، ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا ﴾ – بامتثال أوامر ربه واجتناب نواهيه – ﴿ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى ﴾ يعني سواء كانَ ذكراً أو أنثى، ولكنْ بشرط: ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ أي بالله ورُسُله، وبما أخبرتْ به الرُسُل من الغيب ﴿ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ﴾ ﴿ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أي يَرزقهم الله من نعيمها ولَذّاتها بغير حساب.

﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴾: يعني كيف أدعوكم إلى التوحيد المؤدي بكم للفوز بالجنة والنجاة من النار، وأنتم تدعونني إلى العمل المؤدي بي إلى عذاب النار؟! إذ إنكم ﴿ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ ﴾ في عبادته ﴿ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ﴾: أي ليس هناك دليل على استحقاقه للعبادة (والله هو الخالق الرازق المُستَحِقّ وحده للعبادة) ﴿ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ ﴾ أي أدعوكم إلى الطريق المُوصل إلى الله العزيز أي الغالب الذي لا يُغلَب، ولا يمنعه شيءٌ من فِعل ما يريد، ﴿ الْغَفَّارِ ﴾ لمن تاب إليه بعد معصيته وشِركه، ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ أي لا شك ﴿ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ يعني أنّ الذي تدعونني إلى عبادته ﴿ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ ﴾ أي لا يَستحق الدعوة إليه، ولا يُلجأ إليه في الدنيا ولا في الآخرة (لعَجْزه ونَقصه)، ﴿ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ ﴾ يعني: واعلموا أن مصير الخلائق كلها إلى الله سبحانه، وسيُجازيهم بما عملوا، ﴿ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ – الذين تعدَّوا حدود الله بالمعاصي وسفك الدماء والكفر – ﴿ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾.

♦ فلمّا نَصَحهم ولم يطيعوه، قال لهم: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ﴾: يعني ستذكرون أني نصحتكم وذكَّرتكم، وسوف تندمون حيثُ لا ينفع الندم، ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ﴾ وأعتصم به مِن شَرِّكم وإيذائكم، ﴿ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ لا يَخفى عليه شيء من أعمالهم وكَيدهم.

– الآية ٤٥، والآية ٤٦: ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ﴾: أي نَجَّى الله ذلك الرجل المؤمن من عقوبات كَيْد فرعون وآله، حيثُ نَجّاه الله مع موسى وبني إسرائيل بعبور البحر سالمين، ﴿ وَحَاقَ ﴾ أي أحاطَ ﴿ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ (حيث أغرقهم الله جميعاً في البحر)، وأصابهم سُوءُ العذاب في قبورهم حيثُ ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ أي صباحاً ومساءً ليُعَذَّبوا فيها إلى أن تقوم الساعة، ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ﴾ يقول الله للملائكة: ﴿ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ في النار، (واعلم أنّ هذه الآية أصل في إثبات عذاب القبر، الثابت في الصحيحين وغيرهما).

- الآية ٤٧، والآية ٤٨: ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ ﴾: أي اذكر أيها الرسول لقومك حين يتجادل أهل النار، ويُعاتب بعضهم بعضًا، ﴿ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ ﴾ وهم الأتباع المُقلِّدون ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ وهم رؤساء الضلال: ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ أي كنا تابعين لكم ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴾ يعني فهل تستطيعون أن تدفعوا عنا شيئاً من النار؟، فـ ﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ - مُوضِّحين عَجْزهم -: ﴿ إِنَّا كُلٌّ فِيهَا ﴾ (فكيف ندفع عنكم شيئا من العذاب، ونحن لا نستطيع أن ندفعه عن أنفسنا؟!) ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾ بقضائه العادل، وقسَّمَ بيننا العذاب بقَدْر ما يَستحق كل واحد منا.

- الآية ٤٩، والآية ٥٠: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ ﴾ من المستكبرين والضعفاء ﴿ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ﴾ - وهم الملائكة المُوكَّلون بالتعذيب في النار -: ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴾ (لكي تحصل لنا بعض الراحة)، فـ ﴿ قَالُوا ﴾ لهم - توبيخًا -: ﴿ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾؟ يعني ألم تأتكم رُسُلكم بالحُجَج الواضحة من عند الله فكذَّبتموهم؟، فاعترف الجاحدون بذلك، و﴿ قَالُوا ﴾: ﴿ بَلَى ﴾، فـ ﴿ قَالُوا ﴾ أي قال لهم خَزَنَة جهنم: ﴿ فَادْعُوا ﴾ أنتم (فإننا لا ندعو لكم، ولا نَشفع فيكم)، ﴿ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ أي في ضياع، لأنه لا يُستجاب.

- الآية ٥١، والآية ٥٢: ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ على مَن آذاهم ﴿ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ ﴿ وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ يعني: وكذلك ننصرهم حين تشهد الملائكة للرُسُل أنهم قد بلَّغوا أُممهم، وتشهد للمؤمنين بتصديق رُسُلهم، وذلك يوم القيامة ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ أمام ربهم ﴿ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ ﴾ أي الطرد من رحمة الله ﴿ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾: أي لهم الدار السيئة في الآخرة، وهي نار جهنم.

- الآية ٥٣، والآية ٥٤، والآية ٥٥: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى ﴾: يعني أعطيناه ما يَهدي الناس إلى الحق (كالتوراة والمُعجزات) ﴿ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴾: أي جعلنا بني إسرائيل يتوارثون التوراة جيلاً بعد جيل، وقد كانت التوراة ﴿ هُدًى ﴾ أي إرشاداً لهم إلى الحق ﴿ وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ أي موعظة لأصحاب العقول السليمة، ليتذكروا بها نِعَم الله عليهم، فيشكروه بطاعته وطاعة رُسُله، ﴿ فَاصْبِرْ ﴾ أيها الرسول على أذى المُشركين (كما صبر موسى على إيذاء فرعون وقومه)، ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ لا يتخلف، وقد وَعَدك بنصرك على كفار قريش، ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾ مِمّا عاتَبَك فيه ربك، ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾: أي استمرّ على تنزيه ربك عمَّا لا يليق به، وأكثِر من الثناء عليه، قائلاً بلسانك وبقلبك: (سبحان الله وبحمده) ﴿ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ يعني في آخر النهار وأوّله، ولَعَلّ المقصود بذلك: صلاتَي الصبح والعصر، أو أذكار الصباح والمساء، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم - كما في صحيح البخاري -: (مَن قال سبحان الله وبحمده في يومٍ مائة مرة: غُفِرَتْ ذنوبه ولو كانت مِثل زَبَد البحر) (وزَبَد البحر هي الرَغوةً الطافية فوق سطح البحر)، (وفي هذا إرشادٌ إلى وجوب الصبر والتحمل من أجل الله تعالى، والاستعانة على ذلك بالاستغفار والذكر والصلاة).

- الآية ٥٦: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ﴾ يعني مِن غير أن يكون عندهم حُجَّة من الله تعالى، أو عِلم أتاهم عن طريق الوحي، أولئك: ﴿ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ ﴾: أي ليس في صدورهم إلا التكبر عن الانقياد للحق، وقد دَفَعَهم ذلك الكِبر إلى الجدال في الحق ليحاولوا إزالته (مِن أجل الوصول إلى العُلُوّ والرئاسة)، و﴿ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ ﴾: يعني لن يصلوا إلى ما يدعوهم إليه ذلك الكِبر (وهو الرئاسة عليك والتحكم فيك وفي أصحابك)، فإنّ الله

سينصرك عليهم، ﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾ مِن شرّهم ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ ﴾ لأقوالهم، ﴿ الْبَصِيرُ ﴾ بأفعالهم، القادر على دَفْع أذاهم وحِفظك مِن كَيدهم.

- الآية ٥٧: ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ ﴾ أي أعظمُ ﴿ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ وإعادتهم بعد موتهم، ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي لا يعلمونَ أنّ خَلْق ذلك كله يسيرٌ على الله تعالى.

- الآية ٥٨: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴾: أي لا يَتساوَى الكافر (الذي عَمِيَ عن آيات الله تعالى رغم وضوحها)، والبصير الذي أبْصَرَ آيات الله فآمَنَ بها، ولم يَتكبر عن الانقياد للحق، ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ ﴾ يعني: وكذلك لا يَتساوَى المؤمنونَ العاملون بشرع الله، والجاحدونَ العاملون للسيئات، ﴿ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ يعني قليلاً ما تتعظون أيها الناس وترجعون إلى الحق.

- الآية ٥٩: ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ ﴾ التي تقوم فيها القيامة ﴿ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ أي لا شك في مجيئها، ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي لا يُصَدِّقون بمجيئها، ولا يستعدونَ لها (بسبب انقيادهم وراء الشهوات والمَلَذّات).

- الآية ٦٠: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي ﴾ وحدي، وخُصُّوني بالعبادة ﴿ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي ﴾ أي يتكبرون عن إفرادي وحدي بالعبودية، ويتكبرون عن التذلل إليّ بالدعاء ﴿ سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ أي أذِلاّء حقيرين.

♦ وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ما مِن مُسلم يدعو بدعوةٍ ليس فيها إثم ولا قطيعة رَحِم، إلا أعطاهُ اللهُ بها إحدى ثلاث: إمّا أن يُعَجِّل له دَعْوَته، وإمّا أن يَدَّخِرها له في الآخرة، وإمّا أن يَصرف عنه من السُوء مِثلها) (انظر صحيح الترغيب والترهيب ج:٢).

- الآية ٦١: ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ ﴾ أيها الناس ﴿ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ وتستريحوا من التعب في طلب الرزق، ﴿ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ يعني: وجعل سبحانه النهارَ لتُبصِروا فيه، ولِتسعَوْا في طلب رزقكم، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴾ بنعمِه الكثيرة عليهم، ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ (بل ربما استعانوا بنعمه على مَعاصيه)، وقليلٌ منهم الشكور الذي يَعترف بالنعمة، ويَستخدمها في طاعة المُنعم.

- الآية ٦٢، والآية ٦٣: ﴿ ذَلِكُمُ ﴾ الذي أنعم عليكم بهذه النعم هو ﴿ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي لا يَستحق العبادة غيره، ﴿ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾؟ يعني فكيف تَنصرفون عن توحيد الخالق وتعبدون مَا لا يَخلق شيئاً؟!، ﴿ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾: يعني كما صَرَفَ اللهُ كفار قريش عن الحق (بسبب إعراضهم عنه وإصرارهم على باطلهم رغم وضوح الحق)، فكذلك يُصرَف الجاحدونَ بحُجَج الله وأدلته عن الحق في كل زمان.

- الآية ٦٤: ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ أي جَعَلها لكم مُستقرًّا لتستقروا فيها، ويَسَّرَ لكم الإقامة عليها، ﴿ وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾ أي جَعَلَ السماءَ سقفًا للأرض، وجَعَلها مُحكَمة البناء حتى لا تسقط عليكم، ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾: أي خَلَقكم في أكمل هيئة وأحسن تقويم، ﴿ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾: أي رَزَقكم مِن الأطعمة الطيبة اللذيذة (من الثمار والحبوب واللحوم وغير ذلك)، ﴿ ذَلِكُمُ ﴾ الذي أنعم عليكم بهذه النعم هو ﴿ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ المُستحِقّ وحده لعبادتكم ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي عَظُمَتْ قدرته، وكَثُرَ خيره وفضله.

- الآية ٦٥: ﴿ هُوَ الْحَيُّ ﴾ الذي له الحياة الكاملة التامة (والجن والإنس يموتون)، ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾: أي لا معبود بحقٍ إلا هو ﴿ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾: أي ادعوه وحده وأنتم مُخلِصونَ له في عبادتكم، ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي الثناء الكامل والشكر التام لله رب الخلائق أجمعين، على نعمة الهداية إلى الدين الحق (بعبادته وحده لا شريك له)، (وهذه أعظم النعم، لأنّ فيها نجاة العبد من النار) (واعلم أنه من السُنّة: أن يَحمد العبدُ ربه بعد كل نعمة يُنعِم بها عليه – دينية كانت أو دنيوية –، فأكثِروا عبادَ الله مِن قول (الحمد لله) بألسنتكم وقلوبكم، فقد قال صلى الله عليه وسلم – كما في صحيح مسلم –: (والحمدُ لله تملأ الميزان)، وهي كلمةٌ يُدفَعُ بها عنا العذاب، كما قال تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾).

٤. الربع الأخير من سورة غافر

- الآية ٦٦، والآية ٦٧: ﴿ قُلْ ﴾ أيها الرسول لمُشركي قومك: ﴿ إِنِّي نُهِيتُ ﴾ أي نَهاني ربي ﴿ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ من الأصنام وغيرها، وذلك ﴿ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي ﴾: أي عندما جاءتني الآيات الواضحات من عند ربي، والتي تدل على استحقاقه وحده للعبادة، وبُطلان عبادة غيره، (وفي هذا توبيخ للمُشركين، الذين لم ينتهوا عن عبادة غير الله تعالى، وقد جاءهم الحُجَج والبراهين من ربهم)، ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ ﴾ أي أخضع وأنقاد بالطاعة التامة ﴿ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾، ﴿ هُوَ ﴾ سبحانه ﴿ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾: أي خَلَقَ أباكم آدم من تراب، ثم تناسلت ذريته مِن نطفة (وهي ماء الرَجُل) ﴿ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ﴾ أي: ثم يَتحول هذا المَنيّ بقدرة الله إلى عَلَقة (وهي قطعة من الدم الغليظ متعلقة بالرَحِم)، ثم تَمُرُّون بمراحل أخرى ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ ﴾ من بطون أمهاتكم ﴿ طِفْلًا ﴾ أي أطفالاً صغارًا ﴿ ثُمَّ ﴾ يُنَمِّيكم سبحانه ويُرَبِّيكم ﴿ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ﴾ (وهو وقت الشباب والقوة واكتمال العقل) ﴿ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا ﴾: أي لتصيروا شيوخًا، ﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ ﴾: يعني منكم مَن يموت قبل ذلك العُمر، وقد فعل اللهُ ذلك بكم لكي تعيشوا في هذه الدنيا ﴿ وَلِتَبْلُغُوا ﴾ بهذه المراحل المُقدَّرة ﴿ أَجَلًا مُسَمًّى ﴾ أي وقتاً معلوماً تنتهي عنده أعماركم ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ حُجَج الله عليكم بذلك، لتعلموا أنه لا إله غيره يفعل ذلك، فتعبدوه وحده وتطيعوا أمْره.

- الآية ٦٨: ﴿ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾: أي هو سبحانه المُتفرِّد بالإحياء والإماتة، وأنتم تعلمون ذلك أيها المُشركون، فلقد كنتم أمواتًا – وأنتم في العَدم – فأوجدكم سبحانه ونَفَخَ فيكم الحياة، فكذلك لا يُعجزه إحياء الناس بعد موتهم، ﴿ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ فكذلك يأمر الله الأرواح يوم القيامة أن تُرَدّ في الأجساد بكلمة: "كن"، فيكونُ ذلك في لمح البصر.

- من الآية ٦٩ إلى الآية ٧٤: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ ﴾: يعني ألاَ تَعجَب – أيها الرسول – من هؤلاء المجادلين في آيات الله (رغم أنها واضحة الدلالة على توحيد الله وقدرته)؟! ﴿ أَنَّى يُصْرَفُونَ ﴾؟! يعني كيف يَنصرفون عن الحق إلى الباطل، رغم وضوح الحق وقوَّة أدِلَّته؟! وهؤلاء المجادلون هم ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ ﴾ أي القرآن ﴿ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا ﴾ مِن سائر الكتب السماوية، ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ عاقبة تكذيبهم ﴿ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ ﴾: أي حين تكون القيود في أعناقهم وهم في نار جهنم، ﴿ وَالسَّلَاسِلُ ﴾ في أرجلهم، و﴿ يُسْحَبُونَ ﴾: أي تسحبهم ملائكة العذاب ﴿ فِي الْحَمِيمِ ﴾ (وهو الماء الحار الذي اشتدَّ غليانه وحرُّه) ﴿ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ يعني: ثم بعد عذاب الحميم، توقد بهم النار (كما توقد بالحطب) ليُعانوا من لهيبها وشدة حَرِّها، ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ ﴾ – توبيخًا وتأنيباً – وهم في هذه الحالة التعيسة: ﴿ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾؟ يعني أين الآلهة التي كنتم تعبدونها من دون الله لِيُخلِّصوكم مِمّا أنتم فيه؟، فـ ﴿ قَالُوا ﴾: ﴿ ضَلُّوا عَنَّا ﴾: أي ذهبوا وغابوا عن عيوننا، ﴿ بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا ﴾: يعني بل كنا في ضلال، وكانت عبادتنا لهم باطلة لا تساوي شيئًا، ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴾ يعني: وكما ضَلَّت عنهم معبوداتهم في جهنم، فكذلك يُضِلّ الله الجاحدين عن طريق الصواب في الدنيا.

- الآية ٧٥، والآية ٧٦: ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ العذاب الذي أصابكم، إنما هو ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾: أي بسبب أنكم كنتم تفرحون بما تفعلونه من المعاصي ﴿ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ يعني: وبما كنتم عليه من التكبر على عباد الله

وظُلمهم، فلذلك وَجَبَ أن يُقال لكم اليوم: ﴿ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ ﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أي قَبُح مصير المتكبرين على الانقياد لأوامر الله والمتكبرين على عباده.

- الآية ٧٧: ﴿ فَاصْبِرْ ﴾ أيها الرسول على تكذيب المُشركين، وامض في طريق دعوتك، ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ ﴾ - بنصرك عليهم وإعلاء دينك - هو ﴿ حَقٌّ ﴾ لابد من إتمامه، ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ ﴾ يعني: فإمَّا أن نُرِيَكَ - أيها الرسول - في حياتك ﴿ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ ﴾ من العقاب (كما حدثَ في بدر) ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ قبل أن نُرِيَكَ ذلك فيهم: ﴿ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ أي: ففي الحالتين سيرجعون إلينا بعد موتهم، وسنذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون.

- الآية ٧٨: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ ﴾ ليدعوا قومهم إلى توحيد ربهم، فـ ﴿ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ ﴾ في القرآن ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ (لِحكمةٍ أرَدناها)، وكلهم مأمورونَ بتبليغ وحي الله إلى قومهم وبالصبر على إيذائهم ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ ﴾ من الآيات المحسوسة أو العقلية ﴿ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ ومشيئته، ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ بعذاب المُكَذِّبين: ﴿ قُضِيَ بِالْحَقِّ ﴾: أي قضى الله بالعدل بين الرُسُل ومُكَذِّبيهم (فأنجى الرُسُل وأتباعهم وأهلك المُكَذِّبين) ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ أي هلك حينئذٍ أهل الباطل (الذين يريدون إبطال الحق بأهوائهم).

- الآية ٧٩، والآية ٨٠، والآية ٨١: ﴿ اللَّهُ ﴾ سبحانه هو ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ ﴾ ﴿ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا ﴾ أي: منها ما تركبونه في أسفاركم ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ أنواعاً مختلفة من اللحوم، ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ﴾ - كالصُوف والجلود والألبان - ﴿ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ ﴾ يعني: ولتبلغوا - بالحمولة على بعضها - حاجةً في صدوركم (وهي الوصول إلى البلاد البعيدة بهذه الأثقال، للتجارة وغيرها)، ﴿ وَعَلَيْهَا ﴾ أي: على الإبل في البر ﴿ وَعَلَى الْفُلْكِ ﴾ يعني: وعلى السفن في البحر: ﴿ تُحْمَلُونَ ﴾ أي تَركبون عليها (بعد أنْ سَخّرَها اللهُ لكم)، أفلا تشكرونَ اللهَ تعالى على هذه النعم فتعبدوه وحده ولا تُشركوا به؟!)، ﴿ وَيُرِيكُمْ ﴾ سبحانه ﴿ آيَاتِهِ ﴾ الكثيرة الدالة على قدرته وتدبيره في خلقه، ﴿ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴾: يعني فأيّ آية من آياته تنكرونها؟! (فإنّ آياته واضحة لا تقبل الإنكار).

- من الآية ٨٢ إلى الآية ٨٥: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا ﴾ - أي هؤلاء المكذبون -، ألم يَمشوا ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾ متأملينَ مُعتبرين، ﴿ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أي: كيف كان مصير المُكَذِّبين مِن قبلكم (كعاد وثمود وقوم لوط) وما نزل بهم من الهلاك، وقد ﴿ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ ﴾ عددًا وسلاحاً ﴿ وَأَشَدَّ قُوَّةً ﴾ في أجسامهم ﴿ وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ ﴾ كالأبنية والمصانع والحدائق وغير ذلك، ﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أي فلم ينفعهم - حين جاءهم العذاب - ما كانوا يكسبونه مِن مالٍ ورجال وقوة مادية، ولم تدفع عنهم مِن عذابَ اللهِ شيئاً حينَ نَزَلَ بهم، ثم أخبر سبحانه عن سبب هلاكهم قائلاً: ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي بالدلائل الواضحة: ﴿ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴾: أي فرحوا - جهلاً منهم - بما عندهم من العلم المُناقِض لِمَا جاءت به الرُسُل، (أو لَعَلّ المقصود: فرحوا بما عندهم من العلم الدُنيوي وسَخِروا من العلم الروحي واستهزؤوا بأهله) ﴿ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ يعني أحاط بهم - من كل جانب - العذاب الذي كانوا يَسخرونَ منه ويستعجلونَ به، ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ أي عذابنا الشديد نازلاً بهم ﴿ قَالُوا ﴾: ﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾: يعني فلم ينفعهم إيمانهم هذا حين رأوا عذابنا (لأنه إيمانٌ قد اضطُرُّوا إليه، وليس إيمانَ اختيارٍ ورغبة)، وقد كانت هذه ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ

﴾: أي طريقته في الأمم كلها أنه لا ينفعها الإيمان إذا رأوا العذاب، ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾: أي هَلَكَ الجاحدونَ عند مجيء العذاب، فلم يستطيعوا النجاة والفرار.